سياسة الادماج الاستعماري واللغة العربية في تونس

للدكتور محمود عبد المولى

في منتصف القرن التاسع عشر انتصرت فرنسا باسم أوربا المسيحية على القطر الجزائري الشقيق. وكان من نتائج هذا الانتصار تطبيق سياسة الادماج والفرنسة في المغرب العربي عامة وتونس خاصة مع اختلاف بسيط في استعمال الوسائل والطرق المؤدية الى نفس الغرض ان هذه السياسة الفرنسية قد نجحت الى حد بعيد في خلق مشاكل وفوضى فكرية ولغوية واجتماعية وتربوية في بلدان المغرب العربي الثلاثة :

كان المخطط الاستعماري الفرنسي ، الى جانب الاستغلال الرأسمالي والبشري ، يرمي الى افراغ الشخصية التونسية في مضمونها الاجتماعي والقومي لاحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها ، وقد انكب على اعداد طرائق هذا المخطط الجهنمي . اساتذة الاستعمار الفرنسي المتخصصون في العلوم الانسانية عامة واللغة والحضارة العربية والاسلامية خاصة ، والعارفون بدقة التركيب النفسي والاجتماعي للفرد .

وبعد انتصار فرنسا باسم أوربا المسيحية على القطر الجزائري نصبت الحماية على القطر التونسي . وما يقال عن تونس يصدق كثيرا على المغرب الاقصى فيما يخص سياسة الادماج التي سلكتها الدولة الحامية.

« فباسم نعلة غامضة ، دعيت « بالحماية » قلبت سلطات الاستعمار الفرنسي الاطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وحاولت قلب الاطار الثقافي لشعب تونس الذي قهر بقوة الحديد والنار واستسلم للامر الواقع . . .

ففي خلال 1881 فرضت فرنسا سياسة تعليمية ترمي الى غاية الادماج (l'assimilation) وافضل وسيلة لهذا الادماج هي المدرسة وخاصة المدرسة الابتدائية كما صرحت بذلك احدى الشخصيات الفرنسية ؛ لذلك لا بد من استيراد المدرسة الفرنسية وغرسها في بلدان ما وراء البحار ، انها مدرسة فرنسا ببرامجها ونظامها التربوي ومعلميها وكتبها بنفس عناوين فصول البرامج المقررة في مدارس فرنسا الام (. .)

انها مدرسة فرنسا بوسيلة ادماجها القومية ، التعليم فيها بالفرنسية فتصبح من ثم اللغات الوطنية مهجورة واكثر من ذلك ، محتقرة ، واذا ما استطاعت اشكال التعليم الوطني ان تبقى فانها تفقد اذ ذاك كل قدرتها وفعاليتها .»

وفعلا حاولت سلطات الدولة الحامية ان تطبق تلك السياسة **فاول مسألة جابهتها بحزم هي مشكلة اللغة** ولكنها احتارت بين حلين : فأما الادماج الكامل وبالقوة لشعب تونس في الامة الفرنسية ، كما حاولت تطبيقه في الجزائر ، واما **مسخ الشخصية الوطنية ونسف قواعدها من لغة ودين واقتصاد** . . . كخطوة أولى للادماج ، واخيرا وقع اختيارها على الطريقة الثانية . (1)

(1) انظر : Thaalbî : La Tunisie Martyre, Paris, Jouve et Cie, 1920, p. 37.

وعلى الرغم من المظاهرات الشعبية الصاخبة **تمكن المستعمر من ان يجعل فى النهاية اللغة الفرنسية لغة الادارة والتعليم** الرسمية بعد ان نقلت تدريجيا الدواوين الى اللغة الفرنسية **واصبحت بالتالى اللغة العربية فى صف اللغات المميزة كانها لغة اجنبية** ·

هذا اذا استثنينا بعض تلك المؤسسات التعليمية والقضائية التى لا تزال تحافظ حتى اليوم على اللغة العربية ·

كانت السياسة الاستعمارية ترمى من وراء هذه الفرنسة الى **خلق جيل تونسى يكون بعيدا كل البعد عن معرفة لغته وثقافته الوطنية** · وسوف لا يتم تكوين هذا الجيل الجديد حتى تصبح القطيعة ممكنة بينه وبين واقعه وشعبه وبين الماضى والحاضر عندئذ يفقد كل اتصال مثمر بين الشعب من جهة ، وبين ابنائه المستنيرين من جهة اخرى فتنقطع صلة الرحم ، وجميع امكانيات الاخذ والعطاء المثمرة بين الفريقين عند ذلك يصبح من السهل دمج العرب فى الامة الفرنسية « الحامية » .

لكن الاستعمار نسى ردود الفعل العنيفة لشعب تونس ومثقفيه المتمسكين بلغتهم وبثقافتهم الوطنية ، لقد ناضل الشعب التونسى بكل عنف وقوة لعرقلة وابطال السياسة الفرنسية فقاطع اول الامر المدارس الفرنسية واعتبرها خطرة ومضرة لتربية ابنائه ، اليست على كل حال ، مدارس الكافرين بالله ؟ ·

وحتى يتمكن من نشر لغته وثقافته على نطاق واسع عمد المستعمر الى استخدام جميع وسائل الضغط المادية والبسيكولوجية ، ومن ضمن هذه الوسائل الجهنمية استخدم طريقة معقدة جدا ومرحلية :

كان العدو الاستعمارى ذكيا فى انتقاء طريقةالانتداب للخدمة العسكرية وهى تعتمد على الاغراء والقوة فى آن واحد : فبعد ان اتخذ من الحاضرة نقطة ارتكاز ادارى وثقافى فى الشمال جعل الجنوب منطقة عسكرية · اعفى اولا ابناء العاصمة من الخدمة العسكرية وذلك تكريما لبعض العائلات على تواطئها وعدم مقاومتها للحماية ، وتشجيعا لابنائها على الدخول الى المدارس الفرنسية ، كما اعفى ابناء الجنوب من الخدمة العسكرية انهاء لثوراتهم ومشاكلهم ، اما الباقى ، الوسط والساحل والجهات الاخرى فهى غير معفاة من الخدمة العسكرية وبذلك وجد الشعب التونسى نفسه بين فكين حاديين او بين قوتين ارهابيتين مرتكزتين فى الشمال والجنوب ·

ان الشعب التونسى بصفته شعبا عربيا مسلما ، يعتبر أن الخدمة العسكرية تحت العلم المسيحى المثلث علم الكفار ، بمنزلة الكارثة العظمى والطاقة الكبرى ، والمستعمر يعرف هذا الشعور معرفة دقيقة ، فقد استخدم المستعمر كل الوسائل لنشر لغته مثل نظام التفرقة والتمييز بين الفئات السكانية والجهوية باعفاء البعض وعدم اعفاء البعض الآخر من الخدمة العسكرية، وكذلك اعفاء كل من يحصل على الشهادة الابتدائية . . ان هذه الأساليب الجهنمية اجبرت بعض التونسيين على ادخال ابنائهم الى المدارس الفرنسية ، املا فى الاعفاء من الخدمة العسكرية واذا لم يتحصل الشاب التونسى على الشهادة ولم تسعفه القرعة فله امل اخير وهو التعويض بدفع مقدار مهم من المال ·

وعلى الرغم من أن اغلبية العائلات التونسية آنذاك كانت قليلة الموارد الا انها كانت تضحى ، فى اغلب الأحيان ، ببيع متاعها واراضيها للمعمرين الفرنسيين وغيرهم حتى تتمكن من دفع غائلة الكارثة ، كارثة الخدمة العسكرية ، عن ابنائها ، كل هذه الأشياء ساعدت كثيرا على نشر اللغة الفرنسية كما ساعدت التوسع الاستعمارى الرأسمالى على حساب جماهير الشعب الواسعة ·

امام هذه الأشياء جميعا ، وامام سياسة الادماج والفرنسة **لعبت الثقافة القومية عن طريق اللغة العربية والدين الاسلامى دورا لا يضاهى كانت الزيتونة والصادقية والخلدونية معقلا منيعا للدين واللغة والثقافة العربية التى هى اخص مقومات الأمة وحجر الزاوية التى يبنى عليه صرح مجدها وعزها ،** لقد عرقلت هذه المؤسسات الوطنية مشاريع ادارة التعليم العمومى الاستعمارية ومناورات مديرها «ماشويل ولوسيان باى» وغيرهما كما قاومت بكل شدة جميع المشاريع الاستعمارية الأخرى مقاومة **دفعت بخيرة ابنائها ورجالها الى الصفوف الأمامية من المعركة الوطنية لتخليص المجتمع التونسى من التبعية الثقافية** والاستغلال الاقتصادى والبشرى ولا ننكر ما قامت به **المدارس القرآنية العصرية والمدارس العربية الأخرى فى نشر التعليم باللغة العربية** ·

والجدير بالذكر ايضا أن الخلدونية قد لعبت دورا فعالا فى **تلقين العلوم العصرية عن طريق اللغة العربية ،** الى جانب تدريس اللغات الحية كلغات ، ولا نغفل ايضا عن **ذكر تجربة الشعبة العصرية الرائعة التى كانت اثناء الحماية اول تجربة تعريب ناجحة بعد تجربة الخلدونية الرائدة** ·